معالم التجديد في غيبة الشيخ الخديم البحرية

بقلم الباحث علي بدر امبي[94]

تمهيد:

لما خلق الله سبحانه وتعالى العالم، واستخلف فيه الانس والجن ليعبدوه ضمن لهم بفضله ورحمته بعثة الرسل والأنبياء حاملين رسائل إلهية هادية إلى طريقه المستقيم. ولما أرسل أفضلهم وخاتمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ليبلغ آخر كتاب من الله تبارك وتعالى حفظه في صدرو العلماء المحققين بعده صلى الله وسلم، بما فيه من رشد واستقامة، وجعلهم يتوارثونه جيلا بعد جيل ويحمون بيضة هذا الدين بتعاليمهم وإرشاداتهم.

ومما من الله على هذه الأمة أن يتكلف لهم ببعث- على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها،[95] وهؤلاء هم العلماء والدعاة الحاملون راية الإسلام وهديه والمجددون لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قرنًا بعد قرن.

فكان مما كان مَنَّ أهل قرن 14هـ ظهور مولانا الشيخ أحمد الخديم رضي الله عنه الذي أفنى حياته مجاهدا لتجديد هذا الدين في عصره، واعتنى لهذه المهمة الكبيرة إلى أن بلغ أوج الرفعة من الجهاد والمجاهدة. ولقد عرض نفسه في حياته أخطارًا كثيرة لينجي السفينة من الغرق، حيث قام بدعوة تجديدية سنية، ساقه إلى مواجهة أعداء الإسلام الذين أرادوا نسخ قيم الدين، ونصب الكفر والفساد في أرض السنغال، فجرى ما جرى بينهم حتى أدى إلى نفي الشيخ عن وطنه، واستُغْرِب مدة طويلة في بلاد نائية عن مسقط رأسه، محاولين كل المحاولة على الوقوف أمام هذه النهضة، منفقين كل طاقة لعرقلتها، حريصين لسد هذا الثغر الذي فتح عليه مجدد عصره الشيخ أحمد بمب رضي الله عنه. وكان هذا السفر بمثابة صراع بين الشيخ والمستعمر دام سنين طويلة، ماجعله يكن في طياتها معالم تشهد على جدية هذا المشروع التجديدي الذي قام به الشيخ رضي الله عنه، وأنه مبني على أسس ربانية، ونية خالصة يؤيدها إذن وتوفيق من الله تبارك وتعالى، كما يوحي دلائل قوية على صدق ما يدعو به الشيخ وصفاء نيته، ويمثل هذه الغيبة منحى تاريخيا مهما في دعوته ونهضته، يظهر ذلك في كثير من مراحل رحلته والمواقف التي تمر بها، وكذا الأحداث التي عاشها في المنفى، ومايؤيد ذلك من مواهبه التي تشير مستوى معرفية عالية، وقوة إيمانية صادقة يتصف به شخصيته بكمال العبودية لله تعالى والتفاني في خدمة النبي صلى الله عليه وسلم.

ونحاول في هذه المقالة عرْض هذه الغيبة، مبرزين أهم محطاتها، وكذا ما تشملها من معالم وشهود يؤيد كون هذا الشيخ مجددا لسنة الرسول صلى الله عليه في عصره، وعلاقة دعوته التجديدية بهذا السفر وما يتصل بينهما من آثار.

ولمعالجة هذا الموضوع سنضطر بالتطرق أولًا إلى مدخل مفهومي يفك عنوان البحث ومفاهيمه، ثم نتكلم عن الإرهاصات الأولى التي مهدت لهذه الدعوة التجديدية، ثم نطلق العنان إلى ذكر معالم هذا التجديد من خلال الغيبة، ثم نختم بخلاصات ونتائج ما توصلنا به.

---

[94] طالب باحث في جامعة محمد الخامس / الرباط.

[95] – وهو حديث أورده السيوطي في كتابه " التنبيه على من يبعثه الله على رأس كل مائة سنة" بطرق كثيرة دالة على صحة الحديث.

مدخل مفهومي:

يرتبط ببحثنا مفاهيم لابد أن نسلط عليها الضوء كي يتسنى لنا بسط هذا الموضوع بأكثر وضوح ، وهنا نضمن القارئ على تعريف بعض الكلمات المفتاحية المتصلة بالمقال.

أولا: تعريف المعالم

نجد في المعاجم اللغوية أن كلمة المعالم مأخوذة من الجذر الثلاثي: (علم) بفتح العين واللام ، كما ورد في المقاييس أن: "العين واللام والميم أصل صحيح واحد ، ومعناه: يدل على أثر بالشيء يتميز به عن غيره. ومن ذلك العلامة ، والعلم: الراية ، والجمع أعلام ، وكل شيء يكون معلما: خلاف المجهل."[96]

وهذا هو أصل وضعه في لسان العرب ، ودلالته: "ما جعل علامة وعلما للطرق والحدود مثل أعلام الحرم ومعالمه المضروبة عليه. وقيل: المعلم الأثر.

ومعلم الطريق: دلالته. ومعلم كل شيء: مظنته ، وكله راجع إلى الوسم والعلم.

والمعلم: الأثر الذي يستدل به على الطريق ، وجمعه المعالم."[97]

ثانيا: مفهوم التجديد

أما التجديد فأصله من الجذر الثلاثي (جد) يدل على القطع لغة ، فيقال: "جد الثوب والشيء يجد بالكسر صار جديدا ، وهو نقيض الخلق."[98]

أما في الإصطلاح فيستعمل بمعنى: إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة والأمر بمقتضاها ، وإماتة ما ظهر من البدع والمحدثات."[99]

ثالثا: مفهوم الغيبة البحرية

الغيبة في اللغة تدل على "الاختفاء وتستر الشيء عن العيون"[100] والبحرية نسبة إلى البحر ، فهي مصطلح مركب يستعملها معظم مؤرخي المريدية في كتاباتهم ، ويقصد بها [101]: ذلك الحكم الذي وضعه الحاكم الفرنسي والمستعمر تجاه الشيخ ، وهو تغريبه من بلده إلى أرض بعيدة عن وطنه[102] ، حيث لا يرى أحدًا من أهله ، فضلا من طلبته المخلصين ، – ولايراه أحد حتى لا يدرك عن شأنه شيء ، ويمتد هذا التغريب من عام جيسش 1313هـ (1895م) إلى عام كسش 1320هـ (1902م) ، ونسبة الغيبة إلى البحرية تدل على سفره عبر البحر مقابلا للغيبة البرية ، وهي

96 – معجم مقاييس اللغة ، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي ، أبو الحسين (ت 395هـ) ، المحقق: عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر ، 1399هـ - 1979م. مادة علم ج4 ، ص109.

97 – لسان العرب ، محمد بن مكرم بن على ، أبو الفضل ، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (ت 711هـ) ، الحواشي: لليازجي وجماعة من اللغويين ، دار صادر – بيروت ، ط3- مادة علم ج12 ، ص420 ،

98 – نفس المرجع ، ج3 ، ص111 ، مادة جدد

99 – التنبيه بمن يبعثه الله على رأس كل مائة سنة ، للإمام جلال الدين السيوطي ، تحقيق: عبد الحميد شانوحة ، دار الثقة للنشر والتوزيع ، بدون تاريخ.

100 – مقاييس اللغة ، لابن فارس ، ج4 ، ص403. مادة غيب

101 – انظر إرواء النديم من عذب حب الخديم ، للشيخ محمد الأمين جوب الدغاني ، تحقيق رابطة الخديمية للباحثين والدارسين ، دار المعارف الجديدة ، سنة 2017م ، ص: 113

102 – وبالضبط إلى غابون ، لكن مرورا بعدة بلدان إفريقية ، منها (غينيا كناكر) Guinée Conakry ، و(ساحل العاج) Cote D'ivoire ، و(البنين) Bénin ...

الفترة التي قضاه الشيخ في غيبته الثانية في(موريتانيا)[103].

المطلب الأول: الإرهاصات الأولى في اهتمام الشيخ بالخدمة(التجديد)

وقبل نفي الشيخ إلى هذه الغيبة البحرية بل وقبل دعوته التجديدية، كان حاملا على عاتقه اهتماما بالغا لتحقيق هذا المشروع التجديدي وإصلاح ما في المجتمع من البدع والخمول، مرسخا فيهم قيما دينية سليمة، مجددا لطريق العلماء المحققين السالكين على نهج الإخلاص في العبادة والاحسان الخلقي والتزكية الروحية، فيقول رضي الله عنه:[104]

لِلْمصطفَى نَوَيْتُ ما يُجَدِّدُ == سُنَّتَهُ الغَرَّاَ وَإني أَحمدُ

ولعلو هذه الهمة جعل يمهد الدعوة بأشياء كانت لا بد منها لإكمال نيته العظيمة، ولتكون مبنية على أسس متينة، بدءا بالنية الصادقة، بعد طلب الزاد المعرفي الكافي لحمل هذا العبء، ثم التعلق والمبايعة على المختار صلى الله عليه وسلم لخدمته، ما أداه إلى الترشيح في التجديد متوكلا على الله سبحانه ومستعينا منه بدعوات نابعة من قلبه، صادقا في تو جهه إلى الله تبارك وتعالى، إلى أن تم له تحقيق هذه النية وقُبِل دعوته من منفاه، فكانت هذه الارهاصات الأولى لدعوته، واللبنات الأساسية لمشروعه التجديدي.

1- نية الشيخ في التجديد، وابتهالاته

لم يزل الشيخ أحمد الخديم رضي الله عنه في الوهلة الأولى من نهضته ينوي خدمة الرسول صلى الله عليه وسلم خدمة خالصة له بالمدح، والصلاة عليه، وخدمة تخص أمته صلى الله عليه وسلم بتعليمهم وإرشادهم وتأديبهم إحياء لسنته، وتجديدا لنهجه صلى الله عليه وسلم، بعد أن غشي الفساد أمته، وانتشر البدع في زمانه، واهتم الناس بحطام الدنيا ومخالطة الأمراء، وخففوا أمور الدين حتى يتجرأ حافظ القرآن بالرقص فوق المصحف، وفقدوا التربية الحسنة والآداب المرضية، ولم يبق فيهم من الهمة والاستقامة شيء يذكر، ولهذا يقول ناويا بتجديد السنة:[105]

لِلْمصطفَى نَوَيْتُ ما يُجَدِّدُ == سُنَّتَهُ الغَرَّاَ وَإني أَحمدُ

دينٌ سوى إسْلامه لا يُحمدُ == عند الإله وبه نُجَدِّدُ

كما نوى تبيين سنة النبي صلى الله عليه وسلم خدمة له بعد أن طهره صلى الله عليه وسلم عن كل لغى أو لغو، فيقول في مقدمات الأمداح:[106]

نَظافتُه كُلِّي من اللَّغوِ طَهَّرتْ

وسنَّتَه إن شاء رَبِّي أبَيِّنُ

ومن دعواته لنية التجديد توسله في قصيدة "تيسير العسير" بسور القرآن كاملا، وهناك يحدد نيته في التجديد، فيقول:[107]

---

103 - جزاء الشكور العطوف في جواب عبد اللطيف، للشيخ أحمد الخديم (ت 1346هـ - 1927م)، دراسة وتحقيق للباحثين: محمد المرتضى بوسو ومام مور امباكي حمدي، دار الأمان للنشر والطباعة، ط1، 1444هـ - 2022م، ص35

104 - من قصيدة (للمصطفى نويتُ) المقيدة ب: ﴿لي الله القرآنُ جبريلُ محمدُ محمدُ﴾ ضمن "ديوان سَعَادَاتُ المُرِيدِينَ فِي أَمْدَاحِ خَيْرِ المُرْسَلِينَ" لأبي المحامد الشيخ أحمد بمب امباكي. منشورات الرابطة الخديمية للباحثين والدارسين، ط1. (الرباط: دار الأمان، 2021)، 311.

105 - المرجع نفسه، ص: 311

106 - المرجع نفسه، ص: 87

صلِّ وسلِّم ولْتُبارِكْ سَرمدَا

على الذي سمَّيْتَهُ محمَّدَا

وآله وصحبه وَبِالضُّحَى

بِي جَدِّدَنْ مَنْهَجَهُ مُتَّضِحَا

كما يدعو في قصيدة "التوبة النصوح" ، كي يكون سلما يتعلق به من يريد وجه الله تعالى ، وليجدد منهج السلف ، فيقول:[108]

واجْعَلْنِ دهْرًا سُلَّمًا لمنْ إليك أَسْلَمَا

ولِيَ كُنْ مُسَلِّمًا منْ كيْد كلِّ مُجْرِمِ

وقال فيها أيضا:

ولْتُحْيِ دِينَ الْمُقْتَفِي == بِيَ بِلاَ تَكَلُّفِ

ثم دعا فيها أيضا قوله:

بِي جَدِّدَنَّ المَنْهجَا == بِالفضْلِ يا ذالكَرمِ

وقال في قصيدة جذب القلوب:[109]

بعْدَ صلاةٍ لاتَزولْ == بِالنَّال والصَّحبِ الْعُدُولْ

وبِيَ جَدِّدِ السَّبيلْ == بِلَا عدًى أَو أَلَمِ

كل هذه يمثل اهتمام الشيخ بالتجديد في بداية أمره ، ونيته الخالصة في مداواة الأزمة الخلقية في عصره ، ولهذا لجأ في التضرع إلى الله تبارك وتعالى والتوسل بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كي يتيسر له تحقيق هذه الأمنية العظمى ، وهذا دأب الصالحين في طريق سيرهم إلى الله سبحانه ، وهم لا يعتمدون قط في قدراتهم الذاتية فحسب ، بل إنهم يتوجهون رجاء إلى من يعطي ويمنع بفضله وبعدله سبحانه ، توسلا بجاهه صلى الله عليه وسلم.

2- طلب الزاد المعرفي

وهذا المشروع الضخم هو سبب نهضة الشيخ قائما بجولات في البلاد وخارجه لزيادة قدراته المعرفية ، بتكوين نفسه تكوينا معرفيا شاملا ، زيادة على ما أخذ من أبيه من علوم الشريعة والحقيقة ، وهذه الأبيات حكاية منه لهذه النهضة:[110]

ولمْ أَزلْ مُنْذُ عَقلْتُ طَالِبَا

مَعْرفَةً بِالله جَلَّ تَائِبَا

فَجُلْتُ بيْن العُلمآ وَالْأَوْلِيَا

بِنِيَّتِي وعَمَلِي وَقَوْلِيَا

كيْ لَا يَضِيعَ عُمُرِي أَتْعَابَا

لِحُسْنِ ظَنّ قَادَ لِي احْتِسَابَا

حتَّى انْصَرفْتُ عامَ أَيْسَشٍ[111] إلى

خِدْمَةِ خَيْرِ العَالَمين ذِي الْإِلَى

وفي هذا التجوال أخذ الأوراد الثلاثة القادرية ، والشاذلية ، والتيجانية بإجازات وطرق متنوعة ، لكن على صيغة التبرك أخذ كل هذه الأحزاب ، وكان تعلقه بالقادرية طريقة قبل كل هذا.

3- التَّعلُّق ، والمبايعة بالخدمة

فكان أول ما ابتدأ به هو إخلاص النية بالتعلق والمبايعة مع الرسول صلى الله عليه وسلم بالخدمة التي كانت هي أساس هذه الدعوة ، ليكون مجدد قطره في المائة الرابعة بعد ألف من هجرة المصطفى

107 – من قصيدة تيسير العسير ، للشيخ أحمد الخديم

108 – من قصيدته التوبة النصوح الجالبة لأنوار والفتوح

109 – قصيدة جذب القلوب لعلام الغيوب ، في المرجع السابق ، ص: 263

110 – قصيدة بداية السلوك لمجاورة ملك الملوك

111 – 1311هـ - 1893م

صلى الله عليه وسلم ، فيقول الشيخ رضي الله عنه:[112]

أوَّلُ مَا ابْتَدا به الخَديمُ

تَعلُّقٌ بمن له التّقْديمُ

وأظْهرَ الخِدْمةَ عام جَيْسَشِ[113]

وقَلْبَه أَضْمرَها من أَسَشِ[114]

المجاهدة النفسية

لما بايع الرسول صلى الله عليه وسلم لخدمته بدأ ملحا نفسه — أكثر مما كان عليه- بخلوات كثيرة يناجي الله فيها ، مع تزكية نفسه بالزهد والاعراض عن حطام الدنيا ، والبعد كل البعد عن الملوك وبما في أيديهم ، وذلك بشدة التحفظ وزيادة التحرر والتخلي عن كل ما سوى الله ، وهذا ماجعله يرفض لما توفي والده وعورض عليه بالعمل مع الأمير- رفضا شديدًا بالقيام لهذا الأمر ، وأنشد عقب ذلك قصيدتين يذم فيهما مصاحبة الملوك وطلب العون منهم ، ويفصح عن أمره وتوجهه إلى الله تبارك وتعالى دون البشر ، لما سمع بعض الناس يشتمون عليه ويعيبونه لرفضه هذا المهام ، فألف منظومتين رائعتي السبك ردا عليهم ، وهما: " قالوا لي اركن لأبواب السلاطين" و"قالوا سفيه لغضي عنهم بصري"[115].

4- دراسة عصره دراسة نقدية

ثم إنه في كل هذا لم يزل يفكر في تخطيط مشروعه ، حيث قام بدراسة ماضي مجتمعه وسبر مشاكله ، فوضع مؤلفات في السلوك نقدا لما كان سائدا في زمانه الذي كان يحفه فساد الخلق والتمرد من جميع الجهات ، حيث لا يوجد أي طبق في المجتمع إلا وقد عرف تبديلا أو فسادا ، وهذا ما أوجب تأليفه لكتاب" مسالك الجنان في جمع ما فرقه الديمان"[116] وقصيدة "حق البكاء"[117] ، وعرض فيهما رؤيته الإصلاحية معتمدا على طريقة الصوفية؛ بذكر فضائل الأخلاق ، والأداب في العبادات والمعاملات ، وسرد كل ما كان في زمانه من رذائل وعيوب أخلاقية ، وكذا وصف نهج سلف الصالح في "حق البكاء" بأسلوب البكاء والتحسر تذكارا لأخلاقهم ورشدهم.

5- إعلان الدعوة

وبعد هذا قام الشيخ بإعلان دعوته ، بعد أن تلقى الإذن من الله تبارك وتعالى ومن الرسول صلى الله عليه وسلم ، فجمع الطلبة وصرح لهم بدعوته وسلوكه إلى منهج آخر غير الذي ورثه عن آبائه وكان يسير عليه إلى أن بلغ الإذن للدعوة إلى التجديد ، سالكا نهج التربية والترقية ، وعدم الاكتفاء بتلقين الدروس فقط ، بل دعى لهم إلى رفع الهمة ، والسلوك إلى طريق الإرادة الصادقة ، والتحرر من العبودية بمجاهدة النفس وذلك من قوله " من أراد ما أردنا فليسر بسيرنا ، وليقم بأمرنا" بعد أن شافهه النبي صلى الله عليه وسلم بما معناه: "رب أصحابك بالهمة ولاتربهم بالدرس فقط ، وكل بما يليق به" وهذا ما يحكي قائلا:

---

112 – انظر جزاء الشكور العطوف في جواب عبد اللطيف ، للشيخ أحمد الخديم ، ص: 97

113 – سنة: 1313هـ - 1895م

114 – سنة: 1301هـ - 1884م

115 – أنظر إرواء النديم من عذب حب الخديم ، للشيخ محمد الأمين جوب الدكاني ، ص72

116 – أنظر ديوان العلوم الدينية للشيخ أحمد بمب ، جمع وعناية: الرابطة الخديمية للباحثين والدارسين ، دار الأمان للنشر والتوزيع ، ط2 ، 1441هـ - 2020م ، ص293

117 – أنظر مجموعة الصغرى المشتملة على بعض أجوبة الشيخ ووصاياه وإشاراته وفتواه ، تحقيق: الرابطة الخديمية ، دار المعارف الجديدة ، ط1 ، 1440هـ - 2017م ، ص213- 218

ومن عَجائِبِ ابْن عبْد اللهِ

صلّىَ عليه بسلامِ اللهِ

باقٍ أضاءَ أَرْضَهُ بِالْأَوْلِيَا

إلى القيامة وكلٌّ وَلِيَا

سُنَّتَهُ وصَانَها عنْ بِدَعِ

تَبْشيرُهُ خديمَهُ ب"فَاصْدَعِ"

أمَرَه صلَّى عليه اللّهُ

وَالآل والصَّحبِ وَمَنْ وَالَاهُ

بأنْ يُعلّمَ الْمُريدِين ومنْ

يَقْبَلُ منْه النُّصْحَ منْ أَهل الزّمنْ[118]

وبشره الله تعالى بدقائق العلوم كي ينفع الورى ، وأيده بأدق الفهم من لدنه سبحانه ، فقال:

نَزَعَ مَن يفْعل ما يَشا الْعُلُومْ

ويُمْنَها لي بِكونه الْعليمْ

حَفِظْتُ مَا صِينَ عَن الدَّفاتِرِ

فَلا تكنْ عنْ خِدْمتي بِفَاتِرِ

أعْطَانيَ الْمُعْطي بِجاه المصطفى

صلى عليه بسلام اصْطَفَى

بركةَ القُرْآن والعُلُومِ

وقَادَ يُمْنَها إلى تَعْلِيمِي

إلى تَوَاليفِي يقُودُ اللّهُ

أسْرارَ لا إلا إللّهُ

نَزَعَ لي وليس مِنِّي يَنْزِعُ

وإنَّنِي به حِمًى وَمَفْزَعُ

ذلكَ فَضْلُ اللّه يُؤتيه الذي

يَشاؤُهُ وَقَال لِي: قُلْ بِي لُذ[119]

6- وضع مؤلفات نظما للمنثورات وتلخيصا للمطولات

ثم إنه وضع مؤلفات غزيرة وهو ما زال شابا يافعا يُقْبِل مشروعا كبيرا من نقيِّ حلمه ، بعد أن علم أنه لا بد لكل دعوة إسلامية أن تكون منطلقا بالعلم قبل السلوك ، فجمع في كتبه فوائد العلوم ، ولخص فيها ما يحتاج من العلوم الشرعية من توحيد ، وفقه ، وتصوف ، وآداب ، ونحو... وذلك بعد أن تبحر فيها قام بنظم كثير من منثورات العلماء ، وخاصة ما كان رائجا في عصره منها:

- مواهب القدوس في عقد نثر شيخنا السنوسي
- تزود الصغار إلى جنان الله ذي الأنهار
- سلاح أهل الخوف في نظم منثور الإمام العويفي
- مسالك الجنان في جمع ما فرقه الديماني
- جوهر النفيس في عقد نثر الأخضري الرئيس
- نهج قضاء الحاج فيما من الأدب إليه المريد يحتاج

هذه وغيرها من مؤلفات مفيدة وفريدة لاشتمالها كل ما يحتاج من أمور الدين ، وخاصة المتعلقة منها في العقيدة ، والفقه ، والتصوف ، وأكثرها مجموعة ضمن ديوان العلوم الدينية التي نشرتها رابطة الخديمية للباحثين والدارسين.

---

118 - إرواء النديم ، للشيخ محمد الأمين جوب الدكاني ، ص74

119 - المرجع السابق ، ص74

7- إنشاء مدن للتربية والتعليم

ولما علم الشيخ بعظمة ما يدعو به وأنه سيصعب عليه تحقيق ذلك إن بقي في أرض أجداده وتحت حجاب الملوك والطغاة، واختلاط طلبته بأهل الدنيا والمنشغلين في طلبه، قام بجهد نفسه حاملا مشقات عويصة لإنشاء قرى تكون مهد دعوته التجديدية، وتكون مدنا خاصة للتربية والتعليم والعبادة، بعيدا عن الناس فضلا عن الملوك وأراضيهم، وهذه رؤية عظمى قل ما تجده – وتدل على عقلانية الشيخ وعلو همته في تجديد ما اندرس من الكتاب والسنة، بغرس القيم وتعليم الأجيال الناشئة وتربيتهم، ولهذا السبب أنشأ قرى كثيرة من بينها:

- دار السلام
- طوبى
- دار القدوس
- دار المنان

وفي مدينته طوبى يقول:[120]

الحمدُ للّه الكَريمِ ذي الْمِنَنْ

عَلى اشْتِغالي بِفُروضٍ وَسُنَنْ

شكَرْتُه لأنه قدْ ساقَنِي

لِوطنٍ به نَمى ما عَاقَنِي

وقَادَنِي إليه بالتَّحلِّي

من بَعْد مَا هَذّبَ بالتَّخَلِّي

وجَرَّنِي فيه إلى العُلومِ

والفوْزِ بالعَملِ بالْمَعْلومِ

إلى قوله:

واجْعَلْهُ دَأْبًا مَسْكَنَ التَّعلُّمِ

ومَوْضِعِ الفِكْرة والتَّفَهُّمِ

ومسْكنَ الإرْشاد والتّعليمِ

ومسْكنَ التَّصْويبِ والتَّفْهيمِ

بالمصْطفَى لي بَنَى القُدّوسُ مدرسةً

بها يَزُولُ الْأذَى والجَهْلُ والْكمَدُ

8- التوسل بالصالحين، والتمسك بهديهم

وهذا التوسل والاقتداء بالسلف الصالح، والذين حازوا رضى الله تبارك وتعالى –جانب مهم لاتباع آثارهم، والانتفاع من فيوضاتهم، ولهذا فإن الشيخ لم يغفله قط، فقد اشتمل قصائده الابتهالية توسلا بجميع الصلحاء، كما يتوسل بذكر أسماء الصحابة، وخاصة أهل بدر وأهل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم، وهكذا بفقهاء الأربعة، وأصحاب الطرق الثلاثة، وغيرهم من خيار العلماء، ومن مؤلفاته في ذلك:

- تحفة المتضرعين في التوسل بأسماء المفضلين
- قصيدة الصنديد
- أسماء أهل بدر

وعلى هذا فإن الشيخ رضي الله عنه توسل بجميع المقدسات في الدين، بالعرش والكرسي، وبالكتب السماوية، والأنبياء والمرسلين، وبالملائكة المقربين...

وفي هذه الفترة نظم سلسلة القادرية، وهي قصيدة يتوسل فيها بجميع شيوخه الذين مر عليهم الورد منه إلى أن وصل إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

120 – من قصيدة مطلب الفوزين

ومما اعتنى به الشيخ قبل غيبته البحرية صدق التمسك بالطريقة ملازما على أورادها وأحزابها وشروطها وآدابها ، بعد أن كان ملتزما بما في الكتاب والسنة وعاملا لهما.

ومما سبق نلاحظ شدة اهتمام الشيخ بمهمة التجديد ، وذلك ما جعله يتأهب معرفيا ، حتى يلح نفسه بالمجاهدة لأداء خدمته بإحياء سنة النبي صلى الله عليه وسلم ، وفعلًا حقق ذلك بعد دعوته التجديدية ، ويظهر معالمها من خلال غيبته البحرية وعند مواجهته للاستعمار.

المطلب الثاني: المعالم التجديدية في الغيبة البحرية

ما إن طالت دعوةُ الشيخ رضي الله عنه بفترة قصيرة إلا بدأت البذور تنمو ، والروائح تنبعث من كل أنحاء ، والنتيجة تظهر في مريديه ، وذلك لمّا عمل على خطته التي ذكرناها ، وسار على النهج الذي دعى إليه لم يعرج ولم يمل ، حتى فتح الله عليه قلوب الرجال والأحباب ، وانتفع بتربيته الأتباع والزوار ، وطفق الناس يتسابقون إليه وحدانا وزرافات ، ويتدفقون إليه من كل فجّ مزاحمين بجماعات ، ونال الشيخ شهرة واسعة طارت به في الآفاق إلى أن عمت صيته ، ما أثار قلوب الحاسدين واهتز غيرة الحاقدين ، فبدؤوا يفكرون بالسعي إلى عرقلته ، ولم يجدوا بدا من ذلك إلا أن يناشدوه بالمستعمر ، ويسعوا بينه وبين الحكومة المحتلة واشِين ، وهذا ما أدى إلى نصب تهمة عظيمة في نفوس الفرنسيين ، وهي الدعوة إلى الجهاد ، ومحاولة طردهم عن البلاد ، فإنهم ما كانوا يتَمهَّلون في معالجة مثل هذه القضايا؛ لأنها لم تكن خطرا على حركاتهم الإستبشارية فحسب ، بل كانت تهدد سياستهم الإستعمارية ، وتقلل نفوذهم في أفراد الشعب الذي كان يسوده الشتات آنذاك ، لمّا ضعفت قوة ملوك الأمصار ، ولم يعد لهم أي تأثير في المجتمع. ولهذا دعوا فورا لمحاكمة الشيخ بهذه التهمة حتى آل الأمر إلى الحكم بتغريبه ، ليقفوا أمام دعوته التجديدية ، ومنعوا منعا كليا لمريديه بالاجتماع وغير ذلك ، ظانين أن الدعوة ستقف هنا بأخذ الشيخ المؤسس وتغريبه ، لكن زاد هذا السفر بلة في الطين ، فكان في الحقيقة عين بداية تحقيق هذا المشروع ، وانطلاق عزمه في التجديد والترشح إلى أداء الخدمة الكبرى ، مواجها أعداء الله بالجهاد ، حتى وفقه الله سبحانه بالنصر المبين ، ورفع راية الإسلام والدين ، نافيا عن البلد أعداء الله والشياطين.

وهذه بداية المحن والعوائق ، التي كانت تقف أمام الشيخ لعرقلة دعوته التجديدية المقتبسة من الكتاب والسنة ، والتي نصبها أعداؤه بدءا بالعدو الأكبر إبليس -لعنة الله عليه- الذي أغرى الوشاة باتهام الشيخ حقدا ، وحالُوا بين الشيخ والنصارى ، فكانت الأعداء على قسمين ، حيث واجه الشيخ على كل منهما تحقيقًا لمهمته:

العدو الأول: الشيطان ومكائده

العدو الثاني: الوشاة مع الاستعمار

أما الشيطان العدو الأول فقد أيَّسه الله منه في صولته الأولى ، لقوة إيمان الشيخ وشدة عزمه وتوكله على الله تبارك ، وكثرة ذكره بقول الله سبحانه: "إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ" [الأعراف: 196]

ولهذا يقول في قصيدته المطرزة ب: (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان):[121]

أيَّسَ مِنّي اللهُ عند "جيوَلِ"[122]

إبْليسَ إِذْ نَادَيْتُهُ ب"ياوَلِي"

121 - جزاء الشكور العطوف ، للشيخ أحمد الخديم ، مصدر سابق ، ص111

122 - قرية في إقليم لوغا - سنغال

وفيها يقول:

ناجيتُهُ ب"يانَصيرُ" "ياوَلِي

كَفَيْتَنِي إبليسَ عند "جيول"

وقوله:[123]

إبليسُ أَدْبرَ بِلَا الْتِفاتِ

لِي أبدًا بِجمْلةِ الآفاتِ

أما العدو الثاني وهو النصارى فواجههم بالجهاد والخدمة

وذلك لما وقع ما وقع بتغريب الشيخ، قام بمواجهة المستعمر حتى نال في ذلك حظوة كبيرة وتفوَّق عليهم جهرة، واتضح لهم براءته عن أمر الجهاد وقتل النفس، واستطاع الشيخ من خلال هذه الغيبة بتحقيق ما كان يتمناه من خدمة وتجديد، حيث جاهد عدوه بالتأليف والإصلاح بالسلم فريدا وبعيدًا كل البعد عن وطنه.

- **أسباب الغيبة البحرية**

السبب الظاهر: النفي والتغريب

لقد كان سبب سفر الشيخ كما بينته الآن مبني في الظاهر على تهمة الدعوة إلى الجهاد والاستعداد لمحاربة العدو، فحكموه بهذا البهتان ظلما وجورا، وأخذوه بصفة الأسير المنفي، وهو يقول إنه في سير إلى الله:[124]

أَسيرُ مَع الابْرار حين أسيرُ

وظَنَّ العِدى أنِّي هُناك أَسيرُ

إلى قوله:

مَسيرِي إلَى الوَهّابِ جَلَّ جَلالُهُ

وَمَا لِي إلى غيْرِ الكَريمِ مَسيرُ

السبب الباطن: الخدمة والجهاد

قال الشيخ رضي الله عنه عن شأن هذه الغيبة، كما يروي صاحب الإرواء عنه: اعلم بأن الذين تعلقوا بي لولا تعلقهم بي لدخلوا النار بعد موتهم ولو مدة قبل دخولهم الجنة التي وعد المتقون. وسبب غيبتي البعيدة أن الله تبارك وتعالى أراد في الأزل أن أكون شفيعا لجميع تلاميذي، وحال بيني وبين النصارى..."[125]

وقال أيضا:[126]

عَلَّمَني الرّحمان في السَّفِينَةْ

بِأَنَّنِي خَديمُ ذي المَدِينَةْ

- **معالم تجديد الشيخ طيلة هذه الغيبة**

ويظهر معالم تجديده في هذه الغيبة من أمور:

أولها: جهاده عند مواجهة العدو

من متطلبات الدعوة إلى الله وتجديد السنة مواجهة أعداء الإسلام ومحاربتهم، ولهذا لاقى الشيخ بالمستعمر مجاهدا، وكان تَرد عليه طيلة غيبته إلهامات وخطابات إلهية من آيات جهادية، وآيات الخطابات دالة على الجهاد:

"وأول ما خوطب: قوله تعالى: "وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ" [الأنفال : 30]

123 – ديوان سعادات المريدين، للشيخ أحمد الخديم، مصدر سابق، ص447

124 – قصيدة " أسير مع الأبرار" أنظر إرواء النديم، للشيخ محمد الأمين الدكاني، ص126

125 – المصدر السابق، ص:83

126 – جزاء الشكور في قصيد المقيدة بحروف: "إن عبادي ليس لك عليهم سلطان"، للشيخ أحمد الخديم، ص111

ومحل اللقاء: بقوله سبحانه: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ" [الأنفال : 15]

و عند دخوله سفينة البر: قوله تعالى وتبارك: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" [الأنفال : 45]

مدة مكثه في البحر ثماني حجج إلا قليلًا: يخاطبه تبارك وتعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ" [الأنفال : 15][127]

ولكن كان طريق جهاد الشيخ مختلف لمن قبله من المجاهدين ، فلقد فضل التأليف والذكر بالصلاة والمدح عن أخذ الأسلحة ، كما سنبينه قريبا إن شاء الله.

ثانيها: رفقة أهل بدر نصرة له

ولم يزل الشيخ طيلة سفره مرافقا لجند الله الكرام ، وهذا تأييد من الله تعالى له ، وكانت بمثابة سلاح له يرعب بهم أعدائه ، وفي ذلك يقول:[128]

أَسيرُ مَع الابْرار حين أسيرُ

وظَنَّ العِدى أنِّي هُناك أَسيرُ

مَسيري مَع الأخْيار لله بالنَّبي

ومَا لي لغير الله عَوْضٌ مَسيرُ

وقال أيضا:[129]

نفَى لغيري الله قَبْلُ في "اندر"[130]

بَدْرٍ الأُسُودِ كَدَري

وقال أيضا:[131]

رافَقْتُ جنْدَ الْعَزيز البرِّ في سَفَري

وَكَوْنَه ليَ لَمْ يجْحَدْه أَذْهَانُ

وقدْ تَبَيّنَ لِلْفُجّار كلِّهم

كوْنُ الكرامِ مَعي إذْ جَيْشَهم خَانُوا

ومما يؤيد هذا أنه لما انطلق في رحلته بدأ بنظم أسماء أهل بدر في قصيدة أتمه في المنفى ، وسرد فيها أسماءهم وصفاتهم ، وكما يحكي بأن الله أرعب أعدائه بهم في مراحل ، مرة بنور وجوههم ومرة بصفاتهم الرهيبة ، يقول:[132]

نَصرَني بأهْل بَدرٍ الفِئَامْ

ولِجَنَابي لايُوجِّهُ اللِّئَامْ

وُجُوهُ صِحَاب الْمُنتقَى وَاجَهُوا الْعِدَى

بطَرْدٍ وإرْدَاءٍ كما أدْمَنُوا النَّفْيَا[133]

وقد حدث ذلك في ليبرول[134] ظهورهم في أوصافهم الرهيبة ، فيقول رضي الله عنه شكرًا لله:[135]

---

127 – المجموعة الصغرى المشتملة على بعض أجوبة الشيخ ، مصدر سابق ، ص20

128 – قصيدة " أسير مع الأبرار" انظر إرواء النديم ، للشيخ محمد الأمين جوب الدكاني ، ص126

129 – جزاء الشكور في قصيدة المقيدة بحروف: "إن عبادي ليس لك عليهم سلطان" ، ص111

129 – 1323هـ

130 – اندر مدينة في السنغال وعاصمتها الأولى زمن الاستعمار

131 – ديوان سعادات المريدين في أملاح خير المرسلين ، للشيخ أحمد الخديم ، ص510

132 – المصدر نفسه ، ص76

133 – من قصيدة مقيدة بحروف " أعوذ بالله من الشيطن الرجيم"

يسَّرَ لي المُنَى لدى "ليبرول"

منْ قادَ لي مَا غَابَ عَن كُلِّ وَلِي

لِي قادَ أهلَ بدر الْأُسُودَا

مَنْ زَحْزَحوا الوَاشيَ والْحَسُودَا

ورفقة أهل بدر له لا شك يدل على أن الشيخ لم يكن وحيدا في سيره، بل عضده الله بالذين أقاموا هذا الدين وجاهدوا في سبيل الله حق جهاده، وهاجروا ديارهم وعيالهم لإقامة الإسلام ونفي الكفر والظلام.

ثالثها: تربية الله وتزكيته

من معالم تجديد الشيخ أن ولاه الله لنفسه تربية حتى يصل إلى كمال العبودية لله وحده من خلال محن شديدة، زكى الله به نفسه، فيقول:[136]

وجَّهْتُ وجْهِي لِمنْ تَكْرِيمُهُ بَانَا

فِي شَهْرِ مَوْلِدِ مَنْ فِي الْبَحْرِ رَبَّانَا

رَبَّيْتَنِي رَبِّ فِي الْأَعْداءِ مُغْتَرِبًا

حتَّى رُجُوعِي لِلْأَوْطَانِ قَدْ حَانَا

وقال الشيخ رضي الله عنه حكاية عن هذه التربية:

"مكثت في تلك الجزيرة سنين جاهدت فيها نفسي بترك ما زاد على ما يستتر به من اللباس، وبأكل ما لم يكن يأكله غيري من أدنى الأطعمة."

وقال أيضا: " وفيها أراني ربي عيوب نفسي — كلها وطهرني منها حتى صرت خادما لرسول الله صلى الله تعالى عليه بآله وصحبه وسلم- بعد ما صرت عبدا خالصا له تبارك وتعالى حتى جاد لي بما جاد لي به مما لا ينكره غير شقي مطرود عن الحضرة المقدسة من ذوي الاغترار والتكبر والحسد والنفوس المدنسة.[137]

رابعها: جهاده في التأليف

فمدة مكث الشيخ في هذه الجزيرة مغتربا لم يمنعه بالمضي في التأليف، بل كان الخط والتأليف جهاده الوحيد مع العدو، يقول رضي الله عن شأن هذا الجهاد:[138]

جاهَدتُ بِالْخَطِّ سِنِينَ وَحْدِي

مَن لَم يَكُن مُوَحِّدا ذَا جَحْدِ

بالخطِّ جَاهدتُ عدُوَّ اللهِ

عشْرةَ أَعْوَامٍ بِذكْرِ اللهِ

منْ عامِ جَيْسَشٍ لِعَامِ جَكْسَشٍ[139]

وقُبِلَ الْجَمِيعُ عَامَ هَكْسَشٍ[140]

لَوْ أَنَّني لم أتْرُكِ الكِتَابَةْ

مُجَاهِدًا به ذَوِي الْعِتَابَةْ

لماتَ بالوَباء كلُّ كَافِرِ

إِنْ لَم يَتُوبُوا لِلْإِلهِ الْغافِرِ

لكنْ عَفَوْتُ عَنْ جَمِيعِ النَّاسِ

لوجْهِ رَبٍّ مُهْلِكٍ خنَّاسِي

134 – عاصمة غابون

135 – المصدر نفسه، ص112

136 – في قصيدة المقيدة بحروف: "ولقد كرمنا بني آدم ... " وتعتبر من كتابات الشيخ في البحر

137 – جزاء الشكور العطوف، للشيخ أحمد الخديم، ص65

138 – من قصيدة مطلعها: " ليعلم الناظر أن خطي"

139 – 1323هـ

140 – 1325 هـ

ومن هذه التواليف جملة ما كتبه مقيدا حرفه بآيات القرآن الكريم ، كقصائده المقيدة بحروف "حسبنا الله ونعم الوكيل" والمقيدة بحروف " وأفوض أمري إلى الله" ، وكثير من ذلك مجموعة ضمن " الديوان القرآنية" و"ديوان سعادات المريدين في أمداح خير المرسلين".

ومنها تأليفات في التوحيد ، والفقه ، والتصوف ، بعضها كتبه في البحر ، والبعض أعاد كتابته بعد أن كتبه قبل الغيبة ، مثل "مغالق النيران" و"منور الصدور".

ومنها قصائد شكر ومدح وصلوات؛ وهذه حكاية منه في بعض مؤلفاته هناك:

وفيها: " ألفت كتابا لم يسبق إليه في الإجابة والبركات ، بفيض من كفاني جوار المشركين والمشركات ، وفيها من العجائب ما يؤدي كل منكر إلى الازدجار والسكوت."[141]

ويقول في جهاده بالمدح:[142]

مَديحُكَ يا خَيْرَ الْبَرايَا سَعَادَتِي

يَقينِي بِهِ إبْليسَ رَبِّي مَتَى دَبَّا

مَدحْتُك مَدْحًا كَفَانِي الْعِدَى مَعَا

بذكْرٍ حَكيمٍ فَيْضُهُ نحْوِي انْصَبَّا

خامسها: ابتهالاته في الغيبة ، ودعوته

كأن الشيخ رضي الله عنه في غربته الطويلة كان منسيا أراضيه وأهله وأولاده ، ولكن ما كان قط ينسى همته التي نوى به من قبل ونهض من أجله وهو التجديد والإصلاح ، فأمْرُ أهلِه وكَّلَه على الله سبحانه ، أما أمر هذا الدين فلم يزل يدعو الله سبحانه ليكون هو من يجدده ويرعاه ، وهذه بعض من دعواته في الغيبة:

1- دعائه في البحر ليقيم أركان الله

كَوِّنْ بكن لِّيَ في ذا الْيَوْمِ تَوْسِعَةً

حتَّى أُقِيمَ لِدِينِ اللهِ أَرْكَانَا

اصْرِفْ قُلُوبَ النَّصَارَى عَنْ أذايَ مَعًا

لِنُصْرَتِي واهْدِ بِي شِيبًا وَفِتْيَانَا

اجْعَلْ رُجُوعِي إلَى قَوْمِي سَعَادَتَنَا

وَلْتَكْفِنَا يَوْمَ جَمْعَ الخلْقِ نِيرَانَا

هبْ لي بِفَضْلِكَ كَوْني سَرْمَدَا فَرَحًا

لِلمُسْلِمين وَخَلِّدْ فيك بُشْرَانَا

ضَيِّقِي أَزِلْ عاجِلًا بِالْبِشْرِ مَعْ مَدَدٍ

حتَّى أُقِيمَ لِدينِ اللهِ أَرْكَانَا[143]

ودعا في البحر:

لَهُ اكْتُبْ صَلَاةً مَعْ سلامٍ بِآلِهِ

وأَصْحَابِه وَاجْعَلْ مَسْجِدِي بِه رَحْبَا

2- حماية القرآن والحديث ، ورفعهما به

صُنِ الْحَديثَ وَالْفُرُوعَ كَالْكِتَابْ

عَنِ الذين امْتَنَعُوا من الْمَتَابْ

رَافِعْ بِي ارْفَعِ الكِتَابَ والْفُرُوعْ

مَعَ الْأَحاديثِ الصِّحابِ ذَا بُرُوعْ[144]

141 – جزاء الشكور العطوف ، للشيخ أحمد الخديم ، ص67

142 – المصدر نفسه ، ص65

143 – من قصيدة مقيدة بحروف: "ولقد كرمنا بني آدم..."

بِيَ احْفَظِ الذِّكْرَ الْحَكِيمْ

مَعَ الْحَدِيثِ يَا كَرِيمْ

واجْعَلَنِ حافِظًا فَهِيمْ

لِغَامِضٍ مُكْتَتِمِ[145]

وهكذا كان يحمل رسالة الدعوة التجديدية التي أُمِر بإبلاغها قبل الغيبة ، رغم أنه لم يكن يرى من يطلب الله والرسول لكنه لم يمل في ذلك قط ، فكان متخذا بدينه وداعيا إلى الله بإذنه ، فهذه من دعوته:

1- إشهاده لبحر ما ينبا[146]

لِي اشْهَدْ بِكَوْنِي عَبْدَ مَن يغْفِرُ الذَّنْبَا

وكوْنِي خَدِيمَ الْمُصْطَفَى بَحْرُ مَا "يُنْبَا"[147]

أيَا بَحْرُ وَحِّدْ لَا تُثَلِّثْ فَرُبَّنَا

تَعَالَى عَنِ التَّثْلِيثِ أَكْرِم بِهِ رَبَّا

2- دعوته إلى التوحيد ، والفقه ، والتصوف

أَدْعُو إِلَى اللهِ بِالتَّوْحِيدِ

ومَا رَأَيْتُ عَنْهُ مِنْ مَحِيدِ

للهِ أَدْعُو بِالتَّفَقُّهِ بِلَا

ميْلٍ لِغَيْرِه وَكُلِّي قَبِلَا

للهِ أَدْعُو بالتَّصَوُّفِ مَعَا

مَكارِمِ الْأَخْلَاقِ وَهْو سَمِعَا[148]

سادسها: تجديد أحزاب الأقطاب

ومن معالم التجديد الكبرى التي حدثت في غيبة الشيخ البحرية ، أنه تسلم هنالك من النبي صلى الله عليه وسلم مباشرة الإجازة المطلقة في الأوراد الثلاثة بإذن من أصحابهم ، فلما تخلى من قبل عن استعمال أي ورد متخذا بالقرآن الكريم ، أصبح بعد ذلك مجددا لأحزاب الطرق المعروفة ، ولهذا كان يجيز فيها بعد عودته للمنتمين إليها ، وكان يقول لمن يطلب منه إجازة: أي سند تريد؟ أتريد السند الطويل الذي أخذته من الشيوخ من قبل؟ أو الذي تسلمته من النبي صلى الله عليه وسلم في الغيبة؟ وقد جدد الإجازة في سنده الأخير لجمع غفير من القادرية ، والتيجانية ، والشاذلية بعد عودته.

سابعها: قبول خدمته التجديدية بعد المحن

ومما يدل على تجديد الشيخ أنه بعد هذه المحن عزم بأن الله قَبِلَ نيته ليقوم بهذا المهام ، وليكون من يتولى أمر هذا الدين فيقول:

هَدَمْتُ مَا بَنَاهُ كُلَّ من جَحَدْ

مِنَ الْفِرَى بقُلْ هُوَ اللهُ أحَدْ[149]

فاليوْمَ قَدْ صَرَفْتُ خَطِّيَ إِلَى

تَجْدِيدِ دِينِ اللهِ وَاهِبِ الْإِلَي

لمْ يبْقَ سِوى النَّصيحَةِ لِمنْ

عَاصَرْتُهُم لوجْه مَالك الزَّمَنْ[150]

وقال أيضا:

144 – من قصيدة "وكان حقا علينا نصر المؤمنين"

145 – من قصيدة التوبة النصوح

146 – جزاء الشكور العطوف ، للشيخ أحمد الخديم ، ص65

147 – وهي مدينة في غابون ، حيث ألقي الشيخ في جانب البحر.

148 – من قصيدة مقيدة بحروف"الله محمد"

149 – ديوان سعادات المريدين في أمداح خير المرسلين ، للشيخ أحمد الخديم ، ص445

150 – من قصيدة مطلعها: " ليعلم الناظر أن خطي"

يبُثُّ عُلُومَ الدِّينِ خَطِّي مُجَدِّدًا

لِنَهْجِ النَّبِي بِالْخَطِّ إِذْ رسْمُهُ عَفَا

كِتَابَتِي تُبَيِّنُ الفُرُوضَا

وسُنَنَ الذي كَفى تَمْرِيضَا[151]

ثامنها: تهنئة علماء المعاصرين له بعودته

وبعد مكث الشيخ في غيبته ثماني حجج إلا قليلا رُدّ إلى بلده ، وذلك بعد تفتيشهم له للتصريح عن أمره ، ومحاولتهم ليتراجع في سيره ، فما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، ولهذا قرروا برده إلى الوطن بعد قدر الله سبحانه ، وإثر تأليفه قصيدة مقيدة بحروف (رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا).

وبعد عودة الشيخ رضي الله عنه حقق ما كان يدعو ، واهتز المسلون بالفرح فلم يبق من العلماء إلا وقد هنئه وهنأ الدين بقدومه ، وهذا العالم الموريتاني سعد أبيه أرسل إليه رسالة يهنئه في مجيئه واستهله بقوله: "بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على نبيه الكريم ، وآله وصحبه وسلم أزكى التسليم ، أحمد ربنا الذي نظم شمل الدين بأيام إقبالكم بعد تشتيته بليالي إدباركم ، ... واستخرج ياقوتكم من غور البحار العظام ، وحلى بها جيد المعاهد والإسلام...

ثم أنشد:

مَعادِنُكُم أَجْلَتْهُ مِنْهَا النَّصَارَى

فَأَصْبَحَ فِي تِلْكَ الْبُحُورِ نُضَارَى

وبَدْرٍ مُنِيرٍ غَابَ فِي الْغَرْبِ ثُمَّ لَا

حَ مِ الْغَرْبِ شَمْسًا رِفْعَةً وَانْتِشَارَا

ويَا عَجَبَا بَابَ المَتَابِ مُفَتَّحٌ

لِكُلِّ مُرِيدٍ رَامَ مِنْهُ جِوَارَا

هَنِيئًا لِذا الدِّينِ الْغَرِيبِ الذي غَدَا

يَتِيهُ سُرُورًا مِنْكُمُ وَافْتِخَارَا[152]

وهكذا يمدحه الشيخ يوسف النبهاني في أبيات:

حَوَى "انْجَارِيمُ"[153] عُلُومًا لِلْإِلهِ وَفَضْ

لًا لَا يَمُنُّ وَفَضْلُ الْغَيْرِ مَمْنُونِ

حوَى الْخَدِيمُ الذِي لَوْلَاهُ مَا سُجِدَتْ

عَلَى الجِبَاهِ وَلَمْ تُقْرَأْ بِهِ نُونُ[154]

ويتحدث الشيخ إبراهيم جوب المشعري عن شأن هذه الغيبة ودوره في تجديد الشيخ:

خَرَجْتَ مِنْ "جُلُفٍ"[155] للهِ فِي سَفَرٍ

أَكْرِم بِهِ سَفَرًا قَدْ حَازَ كُلَّ يَدِ[156]

وقال أيضا:

فَأَكْرِم بِهِ مِنْ بَاهِرِ الْفَضْلِ رَبُّهُ

بِهِ جَدَّدَ الْإِسْلَامَ حَتَّى تَجَدَّدَا[157]

---

151 – من قصيدة "صفر مدحَ سيدنا"

152 – راجع ترجمة الشيخ أحمد الخديم في إرواء النديم للشيخ محمد الأمين جوب الدكاني ، ص225

153 – مدينة في السنغال ، أقيم فيها الشيخ رضي الله عنه الإقامة الجبرية من قبل السلطة الفرنسية.

154 – راجع قسم ترجمة الشيخ أحمد الخديم في ديوان سعادات المريدين في أمداح خير المرسلين ، ص49

155 – منطقة في السنغال ، فيها موضع انطلاق الشيخ في غيبته ، يسمى ب: "مباكي بار جلف"

156 – أنظر ديوان الشيخ إبراهيم جوب المشعري ، تحقيق: عبد القادر امباكي وأبو مدين شعيب تياو ، دار الأمان- الرباط ، ط2 ، 1442هـ - 2021م ، ص128

157 – المصدر نفسه ، ص117

ومن معالم تجديد الشيخ الآثار التي ترتب على قدومه ، منها:

- إعطاء الأوراد الثلاثة: كان الشيخ يلقن الأوراد الثلاثة بعد قدومه ويعطي الإذن فيها كما يعطي فيها الإذن أصحابه ، ولهذا ثبت أن كثيرا من المنتمين إليها أخذوا منه إجازة إثر قدومه ، وخاصة أهل موريتنا كانوا يفدون إليه ويجدد لهم أورادهم ، وكذا من كبار مريديه من كان يستعمل الأوراد الثلاثة بإذن من الشيخ تبركا.

- وجود كبار مشايخ تخرجوا من مدرسته التجديدية؛ أمثال سرين امباكي بوصو ، وسرين دام عبد الرحمن لوح ، والشيخ إبراهيم فال ، والشيخ إبراهيم فات ، حيث كان لهولاء المذكورين وغيرهم من مريديه- مراكزُ للتربية والتعليم يأتيهم أبناء المسلمين من جميع الجهات في السنغال.

- المضي في التربية والتعليم: لما قدم الشيخ مضى فيما كان عليه ولم يغير في سيره طرف عين ، كأنه ما غُرِّب قط من أجل هذا ، بل يزداد قدوم الناس عليه في كل فترة ، هذا ما أوجب تغريبه الثاني إلى أرض موريتانيا.

- إنشاء قرى ومساجد: كان من أسس رؤية الشيخ الإصلاحية أنه لابد باعتزال الناس وأهل الدنيا ، ولهذا دأب أن يأمر المريد بعد تربيته بإنشاء قرية خاصة له للتربية والتعليم بعيدا عن الناس ، وهذا سبب كثرة القرى والمدن التابعة للطريقة المريدية الآن في السنغال ، وتوسع دعوة الشيخ من أجل انتشار مريديه في جميع أنحاء البلد.

- تأثيره في قومه وللشعب السنغالي: من أكبر ما استفاد به أهل السنغال عموما في رحلة الشيخ والطريقة المريدية خصوصا كثرة المساجد في السنغال ، والمدارس العربية الإسلامية وكذا الجامعات؛ لأنه كان أول ما يفعله بعد إنشاء قرية ما -بناء مسجد يُصلَّى فيها ، وإقامة كتاب قرآني يدرس فيها أبناء المسلمين ، فهذا أثر عظيم يشهده البلاد اليوم ، حيث تضافرت المدارس القرآنية والمجالس العلمية أكثر من آلاف في طوبى وما حوله.

- تتبع آثار رحلته ومراحلها: وهذه لا أقول إنه أثر ، بل مزية عظيمة نشهده اليوم في السنغال ، حيث أصبح الآن جميع مراحل رحلته وأيام محنته — مناسبات دينية يحتفلها أهل السنغال في كل سنة ، بدءا بخروج الشيخ من جلف يوم ثامن عشر في شهر صفر ، وهي أكبر مناسبة دينية في غرب أفريقيا حيث يجتمع فيها ملايين من الناس يزورن مدينته طوبى في يوم الاحتفاء (مغال) ، ويستفيد البلد فيها من الناحية الاجتماعية والإقتصادية ما يكل قلمي بوصفها ، ثم يوم رجوعه ما من قرية مر فيها في السنغال إلا وقد أصبح اليوم محفل ذكر وشكر. وكذا صلاته في مكتب اندر يوم محاكمته ، مشهد تاريخي عظيم في السنغال ، وخاصة في مدينة اندر وسمي اليوم ب: (ركعتي اندر) ، يجتمع فيها آلاف من الناس يؤدون صلاة العصر في مكتب الحكومة الفرنسية آنذاك- تبركا بركعتي نافل الشيخ. أما عن المساجد التي بني في المدن التي مر بها الشيخ في سفره فحدث ولا حرج ، فالواقع من يشهد لذلك جلي ، وهكذا تم بناء مسجد كبير محل خلواته في غابون والجبل التي كان يعكف

عليها عبادة ، وهذا الحمد لله نعمة عظيمة تركتها بصمة هذا السفر هنالك بفضل هذا التجديد المتمثل بإحياء لما اندرس من الكتاب والسنة.

خاتمة:

وفي الختام تتجلى لنا مكانة هذا السفر في دعوة الشيخ التجديدية ، إذ إنه يمثل منعطفا تاريخيا مهما في سيرته العطرة- رضي الله عنه - ، وأنه سلم تسلق به الشيخ حتى ارتقى إلى قمة الوصول في بناء الذات المعرفي ، بعد أن وضع الأسس الأولى في رؤيته الإصلاحية وما يعضدها من وسائل علمية ومعرفية ، ثم تأتي الغيبة مجسما من خلال مكنوناتها- لهذا المشروع العظيم ، الذي لولا هذه الغيبة لما كان له أثر أو فائدة تذكر ، وكأنها جسر قد وُضع للعبور إلى المهمات ، ولهذا تقوم مقام شاهد يوقع حسن أداء الشيخ لهذه الخدمة الكبرى ، بكثرة ما عانى من أخطار هالكة ، يكفي أن تكون معلما على جدية الشيخ فيما يدعو ، بالإضافة إلى ذلك ما ظهر خلال هذا السفر مما يبدي همة الشيخ العالية في التجديد ، من جهاده وكثرة تأليفاته ودعواته... ولهذا ترتبت على خرجه آثار تذكر إلى يومنا هذا ، وتنفس هذا الدين بظهوره وقدومه علما بأن كلمة الله هي العليا! والله عزيز حكيم.

لائحة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

إرواء النديم من عذب حب الخديم ، للشيخ محمد الأمين جوب الدغاني ، تحقيق رابطة الخديمية للباحثين والدارسين ، دار المعارف الجديدة ، سنة 2017م.

التنبيه بمن يبعثه الله على رأس كل مائة سنة ، للإمام جلال الدين السيوطي ، تحقيق: عبد الحميد شانوحة ، دار الثقة للنشر والتوزيع ، بدون تاريخ.

جزاء الشكور العطوف في جواب عبد اللطيف ، للشيخ أحمد الخديم (ت 1346هـ - 1927م) ، دراسة وتحقيق للباحثين: محمد المرتضى بوسو ومام مور امباكي حمدي ، دار الأمان للنشر والطباعة ، ط1 ، 1444هـ - 2022م.

ديوان سعادات المريدين في أمداح خير المرسلين ، لأبي المحامد الشيخ أحمد بمب امباكي ، بعناية رابطة الخديمية للباحثين والدارسين ، دار الأمان للنشر والتوزيع ، ط1 ، سنة1443هـ - 2021م.

ديوان الشيخ إبراهيم جوب المشعري ، تحقيق: عبد القادر امباكي وأبو مدين شعيب تياو ، دار الأمان- الرباط ، ط2 ، 1442هـ - 2021م.

ديوان العلوم الدينية للشيخ أحمد بمب ، جمع وعناية: الرابطة الخديمية للباحثين والدارسين ، دار الأمان للنشر والتوزيع ، ط2 ، 1441هـ - 2020م.

لسان العرب ، محمد بن مكرم بن على ، أبو الفضل ، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (ت 711هـ) ، الحواشي: لليازجي وجماعة من اللغويين ، دار صادر — بيروت.

مجموعة الصغرى المشتملة على بعض أجوبة الشيخ ووصاياه وإشاراته وفتواه ، تحقيق: الرابطة الخديمية ، دار المعارف الجديدة ، ط1 ، 1440هـ - 2017م.

معجم مقاييس اللغة ، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي ، أبو الحسين (ت 395هـ) ، المحقق: عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر ، 1399هـ - 1979م.